ما علمت عليه إلا خيراً

هذه الجملة اللطيفة: «**ما علمت عليه إلا خيراً**» جملة ذائعة شائعة، تقال في التزكية والتعديل، ولكن استوقفني ورودها في ثلاثة مواقف، تستحق التأمل، وهذا نبأ هذه المواقف:

■ **الموقف الأول:** في حادثة الإفك يُطعن رسولنا ﷺ في عِرضه، وتلقى التهمة على أحب نسائه، ويُتَوهم السوء في رجل من أصحابه، وهو صفوان بن المعطَّل، وتشيع هذه القالة في المدينة.

إنه موقف عصيب؛ وامتحان كبير، ومع ذلك لم يتغير رأيه ﷺ في عائشة، ولا في صفوان؛ بل أثنى ﷺ عليهما خيراً، فقال: «**من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً**»(١).

إن النبي ﷺ بكلامه الطاهر هذا ليرسم لنا منهجاً ينبغي لنا أن نقتفيه في ظل تفشي الأخبار الكاذبة، والشائعات الآثمة.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).

فإنك تجد بعض الناس ما إن يسمعون خبر سوءٍ عن أحد إلا يسارعون إلى تصديقه، دون أن يتبينوا صدق الدعوى؛ بل يسيرون في نشره زرافاتٍ ووحداناً، ويشعلون بذلك وسائل التواصل الاجتماعي، وربما كان صاحب الشأن بريئاً من قالتهم، نقيَّ الثوب من تهمتهم.

ولذا فالرجل الرزين الرصين، ليس إمَّعة يتبع كل ناعق، وليس خفيفاً يسارع بتصديق كل جارح؛ بل يتأنَّى ويتوقَّى، ولا يخوض في شأن أحدٍ إلا شأناً ثابتاً خبره، ظاهرة مصلحته، بينة فائدته، فيحفظ بذلك دينه وعرضه.

■ **الموقف الثاني:** في حادثة الإفك ـ أيضاً ـ يسأل الرسول ﷺ زينب بنت جحش رضي الله عنها عن أمر عائشة رضي الله عنها ويقول: «**يا زينب ماذا علمت؟ أو رأيت؟**».

فهل قالت زينب: هذه فرصة تهتبل، وموقف كبير يستغل، فسأذكر من مساوئ جارتي، ما يزهد الرسول ﷺ فيها؟

أو قالت: نعم يا رسول الله، يمكن أن يحدث منها ذلك؟

كلا، لم تقل زينب شيئاً من ذلك، ولو قالته ـ وحاشاها أن تفعل ـ لقيل: هذا أمر متوقع حدوثه بين الضرات، وقد كانت أختها حمنة بنت جحش تحارب لأختها زينب، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «وطفقت أختها حمنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك».

لكن صاحبة الشأن وهي زينب رضي الله عنها حفظها الله، ولم تقع في شيء من ذلك، وإنما أجابت النبي ﷺ لما سألها، فقالت كلمة سطرتها كتب السُّنَّة والسير، لقد قالت: «يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيراً».

قالت عائشة: «وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله بالورع»[(١)].

ما أعجب هذا! عائشة ضرتها، وهي التي تساميها في الفضل، وتنافسها في الحظوة والمنزلة عند رسول الله ﷺ ومعلوم ما يجري بين الضرائر من الغيرة الشديدة والحسد، ومع ذلك تقول زينب هذا القول العظيم المنصف، فلِلَّه درها، ما أغلبها لهواها، وما أعظم دينها وتقواها!

■ **الموقف الثالث:** وقبل ذكره أضع له تمهيداً؛ فلتفترضْ أن رجلاً أتاك يسألك عن حال فلان من الناس؛ لأمر زواج أو نحوه من الحاجات التي تجوز فيها الغيبة، فأثنيت على هذا الرجل، وقلت: لا أعلم عنه إلا خيراً، وأحسبه من الصالحين، وإذا بهذا السائل يفاجئك بأن هذا الرجل الذي تثني عليه يطعن فيك في عدة مجالس، فما أنت قائل في هذه اللحظة الحرجة التي باغتك فيها مثل هذا الكلام؟

فإن ثبتَّ على كلامك، وقلت: الرجل لا أعرف عنه إلا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).

خيراً، والرجل من الصالحين، وكلامه فيَّ وجهة نظر، فقد أوتيت حظّاً من الحلم، ودخلت في عداد من ليس ينتقم لنفسه.

وإن قلت: عفواً، يظهر أن الرجل قد تغير بعدي، ولا يستحق مثل هذا أن يزوج، ولا أن يصاحب، فقد انتصرت لنفسك!

إذن فاقرأ هذا الخبر عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحدث به المَرُّوذي، فيقول: «ذكر له ـ يعني: الإمام أحمد ـ رجل، فقال: ما أعلم إلا خيراً، قيل له: قولك فيه خلاف قوله فيك؟ فتبسم، وقال: ما أعلم إلا خيراً، هو أعلم وما يقول، تريد أن أقول ما لا أعلم!»[1].

أرأيتم كيف تكون أخلاق الأكابر؛ إنها تنقلب إبريزاً عند الامتحان، يُحدَّث الإمام أحمد، فيقال له: إن الذي تثني عليك يطعن فيك، فلا يتغير رأيه، ولا يطيش حلمه؛ بل يتبسم، ويثني عليه بما يرى أنه أهله، ثم يعتذر لهذا الطاعن: بأنه أعلم وما يقول!

إنه التوفيق الإلٰهي، وإذا أراد الله بعبد خيراً طبع فيه صفات الخير، فيبذلها أسلس من الماء، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً.

انتهت هذه المواقف الثلاثة، وفحواها جميعاً أنه ينبغي لمن أوتي شهامة في طباعه، وسخاوة في أخلاقه، ألا يتغير

---

(١) كتاب الورع (ص١٤٨).

موقفه من أخيه بسبب اشتهار كلام عنه لم يتحقق ثبوته، وألا يمنعه الهوى والانتصار للنفس من أن ينطق بالحق، حتى ولو كان يظن أن فيه غضاضة عليه، والمسألة ليست باليسيرة، فلا يسْطيعها إلا الأفراد الموفقون، الذين ذللت لهم سبل المكارم تذليلاً، وأوتوا في البر حظّاً عظيماً؛ ولا ينالها إلا صاحب همة علية؛ ذو مروءة جزلة؛ قد تَسَنَّمَ ذِرْوَةَ المجد، وأَمَّ معالي الأمور، فكرُمت خليقته، ونبُلت نفسه، فلم تلن قناته لغامز؛ فإن النفوس سريعة التأثر، متأهبة للانتصار، مستعجلة في تصديق الكلام إذا عمَّ واشتهر، والله ـ سبحانه ـ يقول: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ [النور: ١٢].

قال الزمخشري معلقاً على الآية: «فيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قالة في أخيه، أن يبني الأمر فيها على الظن لا على الشك، وأن يقول بملء فيه بناء على ظنه بالمؤمن الخير: هذا إفك مبين.

هكذا بلفظ المصرِّح ببراءة ساحته، كما يقول المستيقِن المطلع على حقيقة الحال، وهذا من الأدب الحسن الذي قلَّ القائم به، والحافظ له، وليتك تجد من يسمع فيسكت، ولا يشيع ما سمعه...»[(١)].

اللَّهُمَّ ارزقنا الإنصاف، وأعذنا من شرور أنفسنا.

---

(١) الكشاف (٣/ ٣٢٤).